قدرة الأمة على
الحركة السريعة لرد العدوان

بقلم اللواء الركن : محمد جمال الدين محفوظ

الأسوة الحسنة

□□ من القدرات التي ينبغي على الأمة الإسلامية أن تسعى إلى امتلاكها والتجويد فيها في هذا العصر : القدرة على الحركة السريعة . . فهي حقاً من الضرورات الحيوية لصلتها الوثيقة بدرجة الاستعداد لرد العدوان . . إذ لا جدوى من أية قوة إذا لم تملك القدرة على أن تصل إلى موقع الخطر في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان . . □□

وعلى الأمة أن تتأسى بالمثل الذي ضربه الرسول ﷺ بنفسه على تلك القدرة ، فعن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر ، على فرس لأبي طلحة عُرْي (بدون سرج) والسيف في عنقه وهو يقول : لن تُراعوا . . » (رواه الشيخان) .

انظر إلى أي حد كانت يقظة الرسول ﷺ ودرجة تأهبه وسرعته في الحركة لمواجهة الخطر الذي يهدد أمته . . وبتحليل الغزوات التي قادها عليه الصلاة والسلام بنفسه (٢٨ غزوة) نجد أنه خرج في سبع منها بقوة محدودة من المسلمين لمهاجمة أعداء علم أنهم يدبرون للهجوم عليه في المدينة ، ففاجأهم في عقر دارهم وأجهض تدبيرهم . . وهذه الغزوات هي : بني سليم ـ ذي أمر ـ بحران ـ ذات الرقاع ـ دومة الجندل ـ بني المصطلق ـ بني لحيان .

وهذا دليل آخر على أن جيش المسلمين كان على درجة عالية من الكفاية والتأهب ، وكانت لديه القدرة على الحركة السريعة نحو مصدر التهديد ، فكان يفاجيء أعداءه قبل أن يستعدوا للقائه بدليل أنهم كانوا في كل تلك العمليات يفرون تاركين ديارهم وأموالهم . .

الحذر والإنذار المبكر

إن الإسلام يعلمنا أنه ليس هناك أخطر على الأمة وعلى سلامتها من الغفلة عن الخطر الذي يتهددها ، ويحثنا على اتخاذ الحيطة والحذر ، وعلى أن نكون على أقصى درجات التأهب والاستعداد للحركة السريعة لمواجهة الخطر . . يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء : ٧١) .

﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ (المائدة : ٩٢) .

وحتى في الصلاة التي يؤديها المسلمون لله ويكونون فيها بين يديه ، يأمر الاسلام باتخاذ الحيطة والحذر والاستعداد : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرىٰ لَم يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُم وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (النساء : ١٠٢) .

وكل الدول اليوم تؤسس استراتيجيتها الحربية على استخدام أحدث أساليب الانذار المبكر ووسائل الاستطلاع المتقدمة ، وعلى الاحتفاظ بقواتها المسلحة (أو جزء منها) على حالة دائمة من الاستعداد القتالي ، ومزودة بوسائط النقل التي تمنحها القدرة على الحركة السريعة نحو الخطر والتهديد . . كل ذلك لأنها تدرك تماماً أن مصير الأمم في هذا العصر يتوقف على درجة استعدادها لرد عدوان أعدائها وعلى قدرتها ـ قبل ذلك ـ على منع العدو من مباغتتها وعلى الحركة السريعة لمواجهته .

قدرة الأمة على الحركة السريعة لرد العدوان

● لا جدوى من أية قوة إذا لم تمتلك القدرة على أن تصل إلى موقع الخطر في الوقت المناسب

تلازم القوة والمرابطة

ولعلنا الآن ندرك مغزى التلازم بين القوة والمرابطة الذي تقرره الآية الكريمة :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال : ٦٠) . .

فقد نتساءل : لماذا خص الله (رباط الخيل) بالذكر مع أنها «داخلة» فيما قبلها (من قوة) فالقوة يتسع معناها للمرابطة ؟

والإجابة أن ذلك دليل على أمرين في غاية الأهمية :

(١) أهمية المرابطة وضرورتها الحيوية .

(٢) تأكيد تلازم القوة والمرابطة وإبراز ما بينهما من صلة وثيقة متبادلة بحيث لا تستغني إحداهما عن الأخرى :

- فالقوة : تحميها المرابطة بالحراسة والانذار المبكر ، وهي بدونها تفقد قيمتها وفاعليتها إذا تمكن العدو من المباغتة .
- والمرابطة : في حاجة إلى القوة التي تشكل لها القاعدة الوطيدة التي تنطلق منها وتعود إليها والتي تساندها وتدعمها .

ولقد كان معنى الرباط في الماضي هو ربط الخيل في الثغور التي يتوقع هجوم العدو منها بقصد الاستعداد لرده وصده وقمع عدوانه إذا حاول العدوان ، فكان المرابطون يقضون الليل والنهار ساهرين شاهرين سيوفهم وأسلحتهم متأهبين للقتال لا يغادرون أماكنهم حتى يحل غيرهم محلهم .

وليس من شك في أن الرباط بمفهوم العصر أصبح واسع المدلول وممتداً ليشمل كل مساحة الدولة وليس حدودها فقط ، كما يشمل سماء الدولة ومياهها الاقليمية أيضاً ، لأنه لم تعد هناك بقعة من أرض الدولة أو سمائها أو مياهها بمنأى عن متناول العدو .

سرعة الحركة

ثم إن ذكر «الخيل» في الآية الكريمة يرمز إلى سرعة الحركة ويرشد إلى أهميتها ، وذلك أيضاً ما يشير إليه قول الله تعالى :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ (العاديات : ١ ـ ٥) .

في هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التي يُسمع لأنفاسها صوت هو « الضبح » من شدة الجري ، ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها الأرض الحجرية والتي يهجم بها فرسانها على العدو في وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتي يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق في وقت الصباح ، فتدخل وسط جمع أعدائه فتشتته . . وتنطوي الآيات على تنبيه المؤمنين ليكونوا دائمين على أهبة الاستعداد بالقوة وبالقدرة على الحركة السريعة ، فيهابُهم من تحدثه نفسه بإضعافهم أو العدوان عليهم .

وغير خافٍ علينا ما نراه اليوم من حرص الدول الكبرى على أن تكون لديها القدرة على الحركة السريعة التي تمكنها من التدخل في الوقت المناسب ـ وقبل فوات الأوان ـ في مناطق الأحداث التي يهمها أن تتدخل فيها بحسب مصالحها وأهدافها الاستراتيجية ، فنراها لكي تحقق لنفسها تلك القدرة تتخذ تدابير متعددة : مثل قاذفات القنابل الاستراتيجية التي تطير باستمرار محملة بالمقذوفات ذات الرؤوس النووية ، والغواصات النووية التي تجوب البحار والمحيطات قريباً من مسارح الأحداث ، والأساطيل البحرية التي تبقى باستمرار في المناطق الحساسة وعلى ظهرها قوات وأسلحة مستعدة للعمل الفوري ، كما نراها تحرص على أن تتخذ لنفسها قواعد بحرية أو جوية خارج أراضيها لكي تكون قريبة من مناطق الخطر ، وتختصر المسافة والزمن اللازمين للتدخل الفعال . .

فرضية الجهاد والحركة السريعة

وإذا كانت الدول تتخذ تلك الاجراءات بدوافع المصالح والأهداف الاستراتيجية ، فالأمة الإسلامية بذلك أولى وفاء بتكليف الجهاد الذي فرضه الله عليها . فالجهاد يكون فرض عين إذا اعتدى العدو على بلد من بلاد المسلمين وكان أهل هذا البلد عاجزين وحدهم عن رد عدوانه .

ومعنى ذلك أن على كل دولة إسلامية قادرة عسكرياً أن تشارك في رد العدوان عن الأراضي الإسلامية في أي مكان . . ولن تكون هذه المشاركة فعالة وذات جدوى إذا لم تكن لديها القدرة على الحركة السريعة إلى الأرض المعتدى عليها . . ففضلاً عن أن الأعمال التي تتخذ طابع النجدة والإغاثة تتطلب السرعة في العمل ، فإن الأعمال الحربية في هذا العصر تتسم بالإيقاع السريع والتطور المتلاحق للمواقف والأحداث ، مما يستوجب أن يكون التصرف في المواقف بسرعة وفي الوقت المناسب وقبل فوات الأوان . .

● الدول الكبرى في سباق على أن تكون لديها القدرة على الحركة السريعة التي تمكنها من التدخل في مناطق الأحداث التي يهمها أن تتدخل فيها بحسب مصالحها وأهدافها الاستراتيجية قبل فوات الأوان

أقصى درجات الحركة السريعة

والأمر الجدير بالتأمل حقاً هو أن الرسول القائد ﷺ قد أوضح للمسلمين « كيف » تكون حركتهم السريعة ، وقرر أن تلك الحركة يجب أن تكون « بأسرع ما يعرفه الانسان من أدوات ووسائل الحركة في كل زمان » . . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خير معايش الناس لهم ، رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانَّهُ (أي في مظانه ، أي الأماكن الموجود فيها) أو رجل في غُنَيْمَة في رأس شِعْفَةٍ من هذه الشعف (أي أطراف الجبال) أو بطن وادٍ من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير » (رواه مسلم) .

من هذا الحديث الشريف نستخلص مبادىء الحركة السريعة كما يلي :

[١] الاستعداد المستمر للانطلاق الفوري

فكلمة « ممسك » في عبارة (رجل ممسك بعنان فرسه) تعني من الناحية اللغوية حالة من الاستعداد والتأهب أكبر من « مجرد ركوب الفرس » ، فهي تفيد « استمرار » حالة الإمساك بعنان الفرس . .

أي أنها تدل على معنى الاستعداد الكامل والمستمر للانطلاق بمجرد الإشارة ، فالفارس والحالة هذه ، إذا جاءه الأمر بالانطلاق ، أو إذا رأى خطراً ، لن يكون بحاجة إلى الإتيان بأي تصرف ، ولا حتى مد يديه إلى عنان فرسه ليمسك به لأنه ممسك به فعلاً ، أي أن كل ما سوف يفعله هو : الانطلاق في الحال . .

[٢] الانطلاق بأقصى سرعة

وكلمة « يطير » و « طار » في عبارة (يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه) ذات مدلول لسرعة الحركة يفوق كثيراً جداً كلمة « اندفع » أو « أسرع » أو « انطلق » ، فالطيران هو أسرع أشكال الحركة على الإطلاق ، ونحن عادة ما نقول لمن نريد منه أن يندفع بأقصى سرعته : « طر » .

وهكذا أراد رسولنا الكريم ﷺ أن يكون انطلاق الرجل المتأهب أو « القوة المتأهبة » نحو الخطر بأقصى سرعة ممكنة .

[٣] « دوام » حالة الاستعداد للحركة

ونفهم أيضاً من الحديث الشريف أن حالة استعداد المسلمين للحركة السريعة لمواجهة الخطر يجب أن تكون « حالة دائمة » لا تتوقف إذا زال الخطر . . وذلك هو ما يفهم من لفظ « كلما » في عبارة « كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه » . .

فالاستعداد هنا لا يكون للانطلاق نحو الخطر ثم نعود إلى حالة من الاسترخاء بعد الفراغ من المهمة ؛ بل ان الاستعداد يجب أن يظل على درجته القصوى لمواجهة أي خطر جديد ، وبعبارة أدق « لمواجهة كل خطر جديد » .

[٤] استخدام أسرع وسائل النقل والحركة . .

وذكر الخيل في الحديث الشريف (رجل ممسك بعنان فرسه) وذكره كذلك في الآية الكريمة : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ، يرمز إلى مبدأ هام في مجال الحركة السريعة هو ضرورة توفير « أسرع » وسائل النقل والحركة ، وإذا كانت الخيل أسرع وسائل النقل والحركة في صدر الإسلام ، فعلينا أن نستخدم ما يقابلها في كل عصر كالسيارة والطائرة والصاروخ في عصرنا .

[٥] تكريم منزلة القوة المتأهبة

إن عبارة « من خير معايش الناس لهم » في بداية الحديث و (« خير الناس » في رواية أخرى) تنطوي على أمر لا يفوت مغزاه على الكيس الفطن ، هو تكريم المجاهد الذي يقف على أقصى درجات اليقظة والتأهب للحركة السريعة نحو الخطر .

انه حقاً تكريم يستحقه لقاء العناء والجهد البدني والعصبي الذي يبذله لكي يكون على تلك الحال من الاستعداد والتأهب ، ويستحقه أيضاً لقاء تنبيهه وتحذيره لأمته من الخطر الذي يتهددها حتى لا تؤخذ على غرّة ، ولقاء كونه أول المبادرين لمواجهة الخطر . . كما ينطوي أيضاً على تحريض للمجاهدين جميعاً لأن يكونوا في أعلى درجات الاستعداد والتأهب للدفاع عن أمتهم ودفع الخطر عنها .

كان أبو هريرة رضي الله عنه مع أصحاب رسول الله ﷺ مرابطين . . ففزعوا إلى الساحل ، ثم قيل : لا بأس . . فانصرف الناس (يعني إلى مواقعهم) ووقف أبو هريرة (أي قريباً من مصدر الخطر ولم ينصرف) فمر به إنسان فقال : يا أبا هريرة ، ما يقفك ؟ . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود » (رواه البيهقي وابن حبان عن مجاهد) . .